تمثيلات كسر التّنميط الصّورائي للمستعمر في رواية :" سيغون ستارغو" للكاتب الجزائري "محمد بن زخروفة "

Representations of breaking the stereotypical image of the colonist in " Sigon Stargo's "novel by the Algerian writer "Mohamed Ben Zakhroufa

نسيبة محي الدين*

تاريخ الإرسال: 2021/06/25	تاريخ القبول: 2021/12/06	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

ترمي رواية " سيغون ستارغو " إلى تفكيك خطاب المتخيّل والمعهود تجاه الآخر المستعمِر، من خلال شقّ نافذة صغيرة تسلّط الضّوء على عدد من أبناء الجيش الفرنسي الذين تمرّدوا على فلسفة الهيمنة والفكر الشّمولي، وانتصروا في مقابل ذلك للفكر التّحرري والشّعوب الضّعيفة، من خلال انشقاق بعض الجنود عن الجيش والسّلطة العسكرية وتعاطفهم مع الحركة التّحررية في الجزائر، في رسالة واضحة لنبذ خطاب الكراهيّة ومحاولة زعزعة التّنميطات الصّورائية التي تقولب الآخر وتموقعه دائما باعتباره ناقصا ومتخلّفا، بالإضافة إلى تحريك الذّاكرة الجمعيّة للجزائريين لإعادة النّظر في مفهوم الذّات والآخر ومسألة تحديداته التّاريخية .

الكلمات المفتاحية: الآخر، المركزية، الصورة الثقافية، النمطية الصّورائية

Abstract:

The novel, Sigon Stargon, strives to dissolve the ideological and the familiar about the continuous other, by slitting open a tiny window that highlights a substantial troupe of french army individuals who rebelled against the the philosophy of domination and holistic thinking, and patronized instead liberal thinking and weak nations, through the desertion

المؤلف المرسل: نسيبة محي الدين noussaiba.mahieddine.93@ gmail.com

* جامعة يحي فارس بالمدية noussaiba.mahieddine.93@ gmail.com

of some soldiers from the army and military authority and sympathizing instead with the liberation movement in Algeria in a clear meassage of dismissing the hatred and rejecting the descriptive profiling that defanates the other and always tags it as the enemy, as well as moving the collective memory of algerians, to reconsider after that the cocept of the other and the issue of its historic determinations

***Key words**: The other, Central, Cultural image, Stereotype*

*** *** ***

مقدمة: تعدّ " الصّورائية " أحد أهمّ فروع الدّراسات المقارنة التي اهتّمت في إطارها العام بدراسة التّمثيلات الثّقافية للذّوات في علاقاتها بالآخر، مبرزة في ذلك دور الأدب في تجسيد نظرة معيّنة للآخر، وفهم الصّورة الذّهنية التي تشكّلها الذّوات عن نفسها وعن الآخرين أيضا إذا انطلقنا في ذلك من حقيقة كون الأعمال الأدبيّة قبل أن تكون متنا جماليا إنّما هي تشكيل غير واع لنسق إيديولوجي من مقولات ثقافيّة تشتغل في تلك النّصوص .

وعليه ، فإن الوظيفة الرّئيسة للأعمال الفنية إذن، إنّما هي نمذجة الآخر وقولبته في إطار صور نمطيّة رتيبة، أسّست لها الخلفيّات التّاريخية والانتماءات الفكريّة والعقائديّة، ثم عزّزتها فيما بعد الصّراعات السّياسية والدّينية.

وهي القضايا التي يهدف علم الصورة إلى تحديدها وإبراز الخطوط العامّة الكامنة خلفها، ثم تفكيك تلك التّحديدات وإزاحتها وإحلال صور أخرى محلّها تؤسّس لمنطلقات مناهضةٍ للتّحديدات السّالفة وتنسف اليقينيّات المرتبطة بها، مثل تلك التي أبرزتها رواية "**سيغون ستارغو**" التي قلبت الصّورة النّمطية لمفهوم المستعمِر في الأدب الجزائري بل وكلّ الثّقافات الإنسانية التي تجعله رديفا لقيم كولونيالية محضة، مرتبطة أساسا بالهيمنة والاستبداد وممارسة كلّ طرق الإجرام بالإضافة إلى انعدام الإنسانية وقمع الحرية، فيُلفي الدّارس الرّواية سعيا واضحا من المؤلّف إلى تسويق وإحلال قيم أخرى موازية ومتباينة تماما مع ما كُرّس من قبل، بحيث نجد أن بطلَ الرواية " **توماس جون ريش** " قد مثّل صورةً واضحة عن فئة من المجنَّدين الذين رفضوا الفكر الاستبدادي بكلّ

أشكاله، وتمرّدوا من ثمّ على سلطته وآليات بنائه، بهدف الالتفات إلى حقيقة رفض العديد من الفرنسيين فكرة احتلال الجزائر وإجبار بعضهم على المشاركة في الحرب عليها.

2. "توماس جون ريش" وبناء الفكر التّحرري

يُمثّل "توماس جون ريش" الصّوت المحوري في الرّواية الذي انقلب على المنظومة الاستعمارية للدّولة الفرنسية أواسط القرن التّاسع عشر[1]، ورفض أن يكون بيدقا تُديره السّياسة الكولونيالية في سعيها الرّامي لتقزيم الآخر ثم إزاحته واحتلاله تحت ذرائع ومسمّيات شتى.

وتبرز تيمة الرّفض والتّمرد منذ الصّفحات الأولى للرّواية، من خلال تأمّلات "جون ريش" التّحرّريّة وثورته الفكريّة على الهيمنة السّلطوية التي مورست ضدّ الشّعب الفرنسي فيقول: «...ليتنا تمرّدنا على من تسبّبوا في تحطيم أفكارنا...لماذا لا نعيش لأجل الذود عن فكرة من أفكارنا؟ بينما نجتهد ونجهد أنفسنا لأجل الدفاع عن أفكار نحتقرها في داخلنا، ثم نسكت ضمائرنا بحجة أن الحياة ستقسو علينا إن انفردنا بأحلامنا، ماذا لو جربنا يوما الوقوف لصالح أفكارنا وتجاوزنا أفكار الآخرين وآراءهم كيفما كانت، ونعطي لحياتنا قدسيتها...يومها حتى إذا حوربنا ومتنا ذودا عن أفكارنا سنحمل لذة في حياتنا دون أن نشعر بخيبة الحياة» [2]. ثم يردف في موقف آخر:«مبادئي أولى بالرعاية، أنا لا ألعق أصابع المفسدين ، بل وإن أتيحت لي فرصة سأقطعها...» [3]. فهو يصيح في لهجة قويّة وواضحة تولّدت عن قراءاته وتأثّره بالفكر اللّيبرالي التّحرري، ومن كتابات أشخاص حُظرت أعمالهم ومنعت من النّشر في فرنسا ذاتها، وآخرون سُجنوا وأُجبروا على إمضاء عقود الموالاة للسّلطة الحاكمة التي حوّلتهم إلى أبواق لا تنطق إلّا بما يُملى عليها.

إنّها الفلسفة التي استنكر من خلالها "توماس" فكرة إجباره على التّخلّي عن موطنه وأمّه وخطيبته، وإلحاقه في مقابل ذلك بوطن شعب آخر تُسلب منه حرّيّته، وهو الرّجل الذي آمن منذ البداية بحريّة الشّعوب وحقّها في تقرير مصيرها بعيدا عن خطابات الهيمنة والإلحاق، التي تتبناها الحكومات الكولونيالية وتتدثّر بمقولاتها السّلطوية، فنجده يصرّح في أكثر من موقف عن انتقاده الخطاب الدّيني المتبنيّ لفكرة الهينة تجاه ما يسمى بالقطيع : « فكّرتُ كيف كنت سأنخدع بهذا الكلام كما قال بيل، وأنا الذي لم أقتنع يوما بأفكار هذه الدّيانات ولا بخدعة التّحضّر التي تصوغها الحكومات لشعوبها عن طريق

استعبادهم» [4]. إذ يرى "توماس " بأنّ سياسات النخب الحاكمة تجاه الجماهير[5] هي سياسات مؤسّسة وخاضعة لما يفرضه نظام الحكم الأبوي المشبّع بقيم الكولونيالية، والذي يتبدّى في الرّواية من خلال إجبار هذه المؤسّسات الشعب الفرنسي على الطّاعة والولاء بحيث لا يمكن الخروج عن ردائه بأيّ شكل من الأشكال، بل ولا يتأتّى حتى انتقاد امبرياليّته التي سعت حسب المفكّر المصري "عبد الوهاب المسيري" إلى «تنميط الإنسان الغربي وتدجينه فأصبح من السهل تحويله إلى مادة استعمالية، أي طاقة إنتاجية وقتالية، وتمّ تجييش الجيوش، وهذه هي الإمبريالية النّفسية، ثم أُرسلت هذه الجيوش لاستعمار العالم وهذه هي الإمبريالية العسكرية»[6]أين صارت الشّعوب الغربيّة وفق هذا الطّرح مجرّد بيادق أو أحجار على رقعة شطرنج تحرّكها الوجوه السّياسية، وتدير تحرّكاتها بل وحتى اعتقاداتها وأفكارها في سبيل تشييء الإنسان و تأسيس دكتاتوريتها الكونيّة مقابل ذلك ، وكذا إضفاء صبغة العالم الأوروبي على تلك المستعمرات[7]، وهي الحقائق التي استنكرها " توماس" طيلة أطوار الحدث الرّوائي وحاول تأليب غيره من العساكر عليها .

لقد انطلق البطل من فلسفة ذاتية واعية ورؤيا راديكالية محضة، تماثلت فيما بعد لتشكّل منظومة فكريّة شاملة وقويّة، استند إليها في بناء تصوّره الرّافض للاستعمار بكلّ أشكاله سواء أكان الدّيني أم العسكري، في فرنسا ذاتها أو في إفريقيا، وهي رؤيا جعلت من المستحيل تقبّل هذا المنظور الامبريالي الذي تتبنّاه الحكومة الفرنسية وتسعى إلى فرضه وتعميمه، لأنّه منظور إقصائي يرتكز على فكرة التّحجيم والاختزال وفرض أحقّيّة الوصاية والقيادة غير المؤسّسة؛ فنجده يقول « هذه السفينة تحمل عددا كبيرا من العساكر الذين يحسون حيال أنفسهم بالظلم بينما يسيّرهم بضع رجال، تخيل بضع رجال فقط يحملون عقولا مثلنا، نحن لسنا قطيع غنم ولسنا عبيدا، يمكننا أن نسير أنفسنا بمحض إرادتنا»[8]. في إشارة منه إلى الفكر الكولونيالي الذي تمارس تعليماته هذه المركزيات مع الشعوب المستعمَرة، وهو المنطق نفسه الذي تنتهجه حتى مع من تحرّكهم لأداء فعل التّمثيل والانتداب، كي يتسنّى لها ضمان إجبارهم على ترسيخ نمط من الفهم لا يتجاوز مقولات السّلطة، ولا يخرج عن تحديداتها السّابقة التي تضمن لها حجب آفاق الاختيار عنهم وتفريغهم من فاعليّة التّفكير.

لقد اعتمدت الحكومة الفرنسيّة استغلال كفّة الإيديولوجيا وجعلها أداة تخدم مشاريعها السّلطوية مثلما وضحه "أونطونيو غرامشي"[9]في حديثه عن توظيف السّلطة للإيديولوجيا والثّقافة، واعتمادهما في مشاريعها التّوسّعية التي تسعى للهيمنة عبر تبييض مقولاتها الشّمولية، والتّخفّي تحت غطاء قيمٍ تنوّم بها شعوبها، سواء في استعمالها للمثقّف العضوي أو الجماهيري، الذي يتحوّل إلى منفّذ طيّع لمشاريعها، فتستطيع «أن تُملي عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية مدهشة وبكامل حريته، فهو مستلب من أحادية البعد بحيث لا يمكنه أن يعمل ملكته النّقدية، وأن يتجاوز الحدود التي فرضت على وجدانه» [10]. لأنّه قد تمّ تأطيره والحجرُ على عقله واستلاب شرعيّته في التّقرير والاختيار من طرف سلطة منحت نفسها حقّ الأبوّة والوصاية والشّرعية .

3. التّمرّد على مقولات السّلطة الكنسية

يتجلّى منطق رفض اللّاهوت الكنسي والّسلطة البابويّة في فرنسا هو الآخر في الرواية وبنبرة حادّة جدّا،كلّفت " توماس " فيما بعد غضب القادة ودخوله السّجن في أوضاع مزرية عكست ردّة الفعل القوية أيضا من طرف السّلطة الكنسيّة، نتيجة خوضه وتشكيكه في يقينيّاتِ بناء الذّات والمركزيّة الغربيّة في إطارها الدّيني، إذ يصرّ "توماس" على ضرب واستهداف مقولاتها من خلال استحضاره مواصفات الذّات المسيحية بما يوازيها في مقابل ذلك من قيم وأفعال غير مشروعة من لدن القائمين على الدّين المسيحي في فرنسا ذاتها، يقول: «مسيحكُم الذي لفّقتم حوله الأكاذيب، ليس هو المسيح الذي عاش قبل مئات السنين، وإنّما أنتم رجالُ دمٍ وخنوع إلى حكومات دولتكم»[11]. وهو الرّد المؤسّس على بعض تعاليم ومقولات المسيح في العهد القديم التي وجد فيها "توماس" شرخا واضحا وتباينا غير مبرّر، بين ما يتبنّاه ويسوّقه أرباب الكنائس في أوروبا اليوم، وبين ما نادى به "عيسى" من قيم التّسامح والحبّ والأخوّة قبل أكثر من ألفي سنة، ويُضيف «وأمّا أنا فأقول لكم أحبّوا أعدائكم باركوا لأعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم»[12]. ويفصّل في الأمر نفسه في إنجيل لوقا، حيث يقول « لأنّ ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس النّاس بل ليخلّص»[13]. فالقيم التي جاء بها عيسى لا تتوافق بتاتا مع فكرة الاستعمار وإخضاع الشّعوب التي أوقدت نارها مركزيّة الدّين المسيحي السّاعية إلى التّوسع المحموم، وإخضاع الأديان الأخرى بمبدأ " لا أريكم إلا ما أرى".

وينبغي علينا التّمييز هنا بين «نشأة المسحية بوصفها دينا ينطوي على منظومة أخلاقية وروحية واجتماعية، وبين نشأة الكنيسة باعتبارها سلطة منظمة لشؤون الأفراد المؤمنين بتلك الدّيانة، ومسؤولة عن تركيب اللاهوت المتعلّق بها»[14]. هذا حتى نفرّق بين المبادئ السّمحة للأديان جميعها، وبين التّمثّل السّيء لها وسوء استخدام مقولاتها وتعاليمها ممّن يدّعون امتلاك حقّ ومعاقبة الخارجين عنها باعتبارهم "ظل الله" أو "خلفائه في الأرض"؛ الذين منحهم حقّ الدّعوة والتّكفير والعقاب، هذه السّلطة الوهميّة التي أسندها أرباب الكنيسة إلى أنفسهم، ثم حاولوا مشاركتها مع ممثّلي الحكومة الفرنسية هي التي أثارت نيلسون وعزّزت فيه تفعيل خطاب انتقادها وهزّ مبادئها المسوّغة لممارسة الفساد والتّضييق على الشّعب، بل وحتى استهدافه والتّحالف عليه، حيث يقول : «ليت الحكومة تفصح عن تلك التقارير السرية التي تصلها عن جرائم القداس، أووف...نسيت أنهم اليد الخفية الرابطة بينها وبين الشعوب، وأن كل تلك الاعترافات التي تقع في حضرتهم إنما تقع مباشرة في يد المخابرات، حينها يستدرج المذنبون استدراجا قانونيا نحو المحاكم، ثم يسحبون على بطونهم إلى السجون»[15]، إنّه الفهم الذي يؤسّس فلسفة البطل في رؤيته للسّلطة الدينية من خلال استحضاره لحادثة الوشاية التي قام بها القسّ ضد إحدى المذنبات المعترفات واغتيالها في الأخير بتواطؤ السلطتين، وهو التواطؤ الذي مدّ خيوطه الأولى منذ القرن الرّابع للميلاد نتيجة امتداد سطوتي الكنيسة واللاّهوت في أوروبا، ثم تحالفها مع نظام القياصرة والأباطرة بهدف تحقيق نوع من توازن القوى بين الاتّجاهين[16].ليشمل هذا التحالف فيما بعد الشعوب والعوالم الأخرى التي أخذت الكنيسة على عاتقها مهمّة الدّعوة إلى استعمارها و تمويل حروبها، حتى تضمن لها كسب الأيادي والسّيوف التي تحقّق بها فرض توجّهاتها الدّينية على الآخر المختلف .

وها هو خطاب الجنرال "دو بورمون"[17] المشبّع بالرّوح الصّليبية والحقد تجاه كلّ ما هو مسلم يثبت لنا حقيقة كون كلّ الحروب في العالم إنما انطلقت من أجل هدف واحد هو المسعى الدّيني الذي حاولت إخفائه والتّغطية عليه بعدد من الأكاذيب والشّعارات المرتبطة بالتّمدن والحضارة، إذ يخاطب "دوبورمون" عساكر فرنسا بلهجة دينيّة صليبيّة محضة، وهو المحمول على السّلطة العسكرية بوصفه أحد جنرالاتها الكبار، فيقول في واحدة من خطبه الحماسيّة : «أيها الرفاق في محبّة فرنسا، ها أنتم اليوم من خيرة أبنائها

تقفون لأجل بعث حضارتها في أرض تشبّع أهلها بالجهل والوحشية، لقد جددتم عهد الصليبيين في نشر التعاليم المسيحية الخالدة، وإن هذه المسألة هي قضية روحية تدرك بالباطن وتجسد بأيديكم حسب قوانين فرنسا المتمدّنة. وإن الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه في إفريقيا هو أسمى وأقدس من الهدف الذي نسعى إلى تنفيذه في بقية البلدان الأوروبية، لكن الأذهان المتحجرة التي تسكن أجساد هؤلاء القوم المتواجدين على هذه الأرض أبوا الانصياع لأوامرنا، أو ترك مجال لنا لزرع الحضارة في أوساطهم، لذلك نحن ماضون في مسعانا النبيل ولو على رقابهم»[18]. في إشارة واضحة لتعزيز، وتأكيد، بل والختم على صحّة التّوجّه الدّيني الذي انطلقت منه الحرب على الجزائر، استنادا إلى حملات التّبشير التي تبنّاها رجال الدّين فيها حتى مع الجنود الفرنسيين مثلما وقف عليه " توماس " وصديقه "بيل" في كشفهما لعدد من رجال الدّين المندسّين في صفوفهم، والمتستّرين تحت بدلات القيادة الحربيّة لإثارة الجنود الفرنسيين وبعث روح القتال لديهم، وهي حقيقة تاريخيّة واضحة ومؤسّسة «فحينما اقتضت مصالح الغرب التّوسع و"اكتشاف العالم " استثمرت الكنيسة رسالتها، فكان المبشرون يجوبون العالم بأناجيلهم جنبا إلى جنب مع حملة السلاح...لأجل الإسهام المباشر في تقويض "المدينة الأرضية، وتخليص بني الإنسان من الدنس الوثني المتوطن فيهم»[19]. حسب ادعاءاتهم طبعا، وهي الفكرة التي رفضها " توماس " وتحمّل من ثمّ تبعاتها، ومسؤوليّة هزّها وانتقاد القائمين عليها في الجزائر.

4. البطل وفلسفة رفض احتلال الجزائر

إنّ القضيّة التي أراد الرّوائي الجزائري "بن زخروفة" إثارتها في هذه الرّواية هي الدّعوة إلى كسر الصّورة النّمطية المرتبطة بالاستعمار، من خلال الإشارة إلى حقيقة إجبار السّلطة الفرنسية لعدد مهمّ من الجنود الفرنسيّين في حربها على الجزائر، سواء من خضعوا لسطوتها فيما بعد وارتدوا البزّة العسكرية، أومن تمرّدوا على القادة العسكريّين وأبدوا تعاطفهم الواضح مع القضيّة الوطنيّة مثلما حدث مع "توماس" الذي أبان عن رفضه القاطع لفكرة الهيمنة وإخضاع الشعوب تحت راية الأسطوانة التي تكرّرها فرنسا كلما ووجهت بجريمة استعمارها الجزائر بأنهم دعاة سلم ، وأصحاب رسالة حضارية جاءوا لينقلوها لمن هم دون مستوى الحضارة.

لقد رفض البطل فكرة الاستعمار قبل مجيئه إلى الجزائر، بل إن مرسوم إلحاقه بالجيش كان إحدى المحاولات الرّامية إلى ردعه وكبت بوادر التّمرد التي بدأت تلوح عليه في فرنسا ذاتها، ثمّ زادت حدّتها بعد عقابه وترحيله، إلى درجة تشكيك زملائه في هويته وانتمائه إلى وطنه؛ مثل الموقف الذي جمعه بأحد الجنود المكلفين بتنصير الأسرى الجزائريين ، فنجد الجندي الفرنسي يسائل " توماس "حول هوّيته وانتمائه إلى فرنسا ثم إخلاصه لها في حيرة كبيرة :

-« هل أنت فرنسي ؟.

- " وهل تعتقد أنّ كلّ شخص ينتمي إلى فرنسا هو راض بأن يظلم أبناؤها شعوبا أخرى تحت راية التّمدّن ؟ فأنا صادق مع نفسي يا صديقي، حاول أن تبحث عن ذاتك النظيفة داخلك وستدرك صدق كلامي »"[20].

إنّ المتتبع لسيرورة الأحداث في الرّواية يقف على حقيقة تبنّي البطل لمقولات الفكر الثّوري الرافض لكلّ أشكال الدّوغمائيات المتحجّرة، من خلال ارتكازه على مفهوم نقد الذّات وتفكيك الخطاب السّلطوي، فنجده قد عبّر بجلاء عن فيض من الدّلالات التي أثارها الكاتب من خلاله، والتي صبّت في مجملها في سبيل ترسيخ قيم الاعتراف بالآخر الشرقي واحترام خصوصياته الدّينية، وكذا نبذ مقولات المركزيّة القائمة على الاستقطاب وفرض الذّات وقمع الحريات الدّينية ؛وهي القيم التي تتبدّى دائما من خلال حديث توماس مع الجندي الفرنسي: « هل تحدثّك نفسك بأنّك شخص مجرم ؟ وهل يعقل أن تفرض على أسير تحتل أرضه أن يتبع دينك مجبرا»[21].ولعل ما أثار "توماس" أكثر وشحن فيه طاقة الرّفض والتّمرد، هو عدم توافي السّلطة الفرنسية عن إظهار سياستها وتصريحها المباشر بأهدافها غير المشروعة في الجزائر، ثم إغراءها الجنود الفرنسيّين بوطن يمتلكونه بحدّ السّيف وقوّة السّلاح، فنجد " دوبورمون "يخاطب جنوده بصيغة المبشر الواهب: «المجد لكم أيها الأبطال اليوم أو غدا هذه الأرض لنا ولأجيال فرنسا»[22]. وهو الفعل الذي ساهم في مضاعفة حدّة رفض وانتقاد السّياسة الكولونيالية لفرنسا لدى البطل ثمّ السّعي إلى خلخلة وتفكيك آليات بنائها التي تتعارض مع تيمات الفكر التّحرري عامة.

لقد سعى "توماس" إلى الدفاع عن فكرة استقلال الجزائر وتمسّك بها طيلة فترة مكوثه فيها، ثم عودته في الأخير إلى فرنسا بعد رحلة من المقاومة والسّعي إلى تحقيق إرادته

الخاصة في اعتناقه لمبادئ الحريّة وحقّ الشّعوب في تقرير مصيرها، بعيدا عن سياسات التّقزيم والإلحاق التي يتبنّاها الغرب في نظرته أو علاقته بالشرق عموما، يقول: «تركت خلفي – بعد أن رسموا لي طريقا في التيه – قلبين أعيش بنبضهما ويعيشان بنبضي...سرت وكأنني أحمل أوجاع الأرض في قلبي نحو منفاي الذي اختاره لي أولئك المتحمسون لامتلاك أرض ليست أرضهم»[23]. ليعود " توماس" إلى فرنسا دون أن يشارك في جريمة الحرب التي ارتكبتها بلاده منتصرا بعدم تنازله عن قيم الحبّ والتّسامح والاعتراف بالآخر الذي يقتضيه الحوار الثّقافي بين الحضارات في العالم المعاصر .

5. التّعذيب ومحاولات الرد القسرية للبطل

وإذا كان "توماس" قد أبى الانصياع لإرادة وسلطة الجيش الفرنسي، ورفض أن يكون أداة طيّعة يحرّكها القادة وممثّلو فرنسا في سلب وطن توهّموا أنه لهم ثم حاولوا إقناع غيرهم به، فإنّه في مقابل ذلك قد تعرّض لشتّى ألوان التّعذيب والتّهم التي كالتها له قيادة الجيش الفرنسية في سعيها لثنيه عن أفكاره التّحررية ومعاقبته على تطاوله على السّلطة الدّينية بإدخاله السجن، «الذي هو في الدولة التّسلّطية الحديثة المصير الممكن لأيّ منحرف عن معايير المجتمع»[24]. التي سنّتها السّلطة وفرضتها فيما بعد للإخضاع والسّيطرة مثلما ذهب إليه "ميشيل فوكو"[25]. حينما اعتبر السّجن تمثيلا للرّغبة التّسلّطية للدّولة التي تحاول الهيمنة على شعبها وجعله خاضعا لأوامرها المعروضة في عباءة الأخلاق، والقانون، والضمير الجمعي الذي يقتضيه النّظام والدولة الحديثة.

وهي المنظومات القيمية التي لا يتأتّى لأي فرد معارضتها والخروج عنها أو حتى مناقشتها وانتقاد آليات بنائها، لأنّه سيدخل مباشرة في حكم المذنب الواجب عقابه تحت سلطة السّجن التي تحاول إعادة تأهيله وإدماجه مثلما كان معروفا في القرن التّاسع عشر، حيث كان السّجين « يخضع لنظام هرمي صارم ...(و) يوضع تحت المراقبة والضبط والتعليم بشكل دائم من أجل أن يتحوّل إلى ماتريد السلطة كما نجدها الآن في المجتمع ، أن يكون عليه كل فرد من أفراد المجتمع – إلى فرد مطيع، منتج، شغول، منتظم، حي الضمير»[26]. وهو ما حصل مع "توماس" الذي أُدخل السّجن كما أسلفنا ذلك تحت سلطة قادة الجيش ومباركة رجال الكنيسة متعرّضا لأشكال فضيعة من التّعذيب تتعارض وبنود حقوق الإنسان، بل وحتّى مع القيم التي تدّعيها فرنسا ذاتها، وهي العقوبات التي يرويها بطل الرّواية

على لسانه في الكتاب الذي ارتأى نشره بعد عودته إلى فرنسا تأكيدا منه على استمراره في طريق رفض الاستعمار والمركزيات الكبرى؛ الطريق الذي شقّه لنفسه وتبنّاه بوعي وقناعة تامة، ولعلّ من أهم طرق التّعذيب التي لاقاها "توماس" هي الكيّ بالسجائر من طرف أحد حراس السّجن المحسوب على الصّانعين و المتعصّبين للتاريخ الكولونيالي الفرنسي ؛ يقول "توماس " راويا بعض ما لاقاه منه :«أشعل سيجارته وأخذ ينفخ دخانها ناحيتي، بعدها قرّبها وأطفأ جمرها على ذراعي، ثم عاد وأشعل سيجارة ثانية وأخذ يمرر جمرها على رقبتي ليضغط بعدها لهيبها على جلدي»[27]. في شكل من أشكال العقاب اليوميّ المرافق للحرمان من الأكل والشّرب وقضاء الحاجة، وكذا التّعذيب النّفسي والاتّهام بالجبن والخيانة والتّمرد على الحكومة الفرنسيّة، بل والتّهديد برفع ملفه إلى فرنسا ذاتها لانقلابه على تاريخ عائلته الشّهير في الدّفاع عن الدّولة الفرنسيّة، فضلا عن طرق التعذيب التي ارتفعت حدّتها هي الأخرى مع ضعف وانهيار جسد السّجين ، وهي العقوبات التي دوّنها البطل فيما بعد وأرّخ بها لأحد الجوانب المظلمة في التاريخ الفرنسي في سعيه نحو الهيمنة والاستعمار، يقول "توماس": «بدأت وخزات الجمر تنتشر على جلدي ، وكأن مسمارا يدق عظم جسدي، أغمي علي لحظتها ولم أعد إلى رشدي إلا وأنا أرى ملامح الأسرى من حولي وبيدي كل واحد منهم قماش مبلّل...لم أشعر بقدر الوقت الذي مرّ على ذهاب الجندي، وأنّ ساعات عديدة مرت على إغمائي»[28]. إن الحقيقة التي استخلصها "توماس "من رحلة السّجن هذه أن فرنسا الأم قد تنكّرت له وأدارت ظهرها عنه، إذ لم يجد من أحد يستند إليه أمام هذا التّحدي الصّارخ لحقوق الآدمية إلا رفقاءه الجزائريين الذين قاسموه آلام سجن "سيغون ستارغو" ورأفوا لحاله الصّحية، متعجّبين من آلة الجريمة الفرنسية التي لم تتوقف أو ترحم حتى أبنائها هي ، فما بالك بالجزائريين الذين تنظر إليهم نظرة الدّونية أحيانا والحيوانيّة أحيانا أخرى .

وإذا كانت هذه هي سياسة فرنسا العامّة وفلسفتها في ردّ وردع كل من يقف أمام مخطّطاتها وأهدافها السّلطوية، فمن الطّبيعي أن يتعرّض المحسوبون أو المتعاطفون مع الذّوات المستهدفة من قبلها إلى هذه الجرائم الإنسانية التي أرّخ لها أبناؤها أنفسهم ، ولعل من بين ما رواه البطل على لسانه في مدوّنته الشّخصية هو كيفيّة رميه في السّجن وترك جسده فريسة للتّعفن بفعل الرّطوبة الشّديدة التي كانت تسم "سيغون ستارغو"، يقول "

توماس" : «كان الأسرى من حولي في كل مرة يرفعون جسدي من مكان إلى آخر خشية تعفّنه، وكانوا يزيلون ترسبات تشكلت على مناطق من جسدي بفعل الرطوبة والأوساخ المنتشرة قربنا، سحبت مرات عديدة على بطني من قبل الجند وهم يطلبون من الأسرى الخروج للعمل، وكنت أترك ملقى بالسّجن، بعد أن أتعرض للرفس من الجند، فيغمى علي ويعيدني الأسرى إلى مكاني بعد عودتهم»[29]. في سيناريو قاس ومملّ يتكرّر يوميّا من طرف سلطة خوّلت لنفسها حقّ معاقبة كل من يخرج عن محدّداتها الكولونيالية كيما تمنح نفسها مبرّرات بقائها، ثم مسوّغات فرض سلطتها وهيمنتها على الآخر.

غير أن "توماس" قد تمكّن في الأخير من تحقيق الخلاص وكسر آلة السّجن والتّعذيب بمساعدة أحد القادة الجنود الذين يعتنقون الفكر التّحرري ذاته، لكن عن طريق واحدة من آليات هيمنة القوى السّلطوية وهي "الجنون"، الذي أراد البطل استغلاله وقلبه لصالحه لضمان مواصلة رسالته في مجابهة القوى الكولونيالية ونصرة الشّعوب الضّعيفة في فرنسا، مستحضرا لحظات القمع التي عايشها في الجزائر المستعمَرة رفقة نظرائه الجزائريين، يقول: «كان يحزنني أمرهم وهم يسيرون تباعا إلى أعمال تشق أجسادهم، ثم يعودون مساء بملامح متعبة وأجساد منهكة ، كنت أتحسس على وجوههم أثر الظلم الذي يتعرضون له ، وأتقاسم معهم حزنهم ودمعهم حينما يفقدون واحدا منهم»[30]. وهو الألم الذي لاقاه الجزائريون وتحمّلوا تبعاته الثّقيلة في رحلة تحقيق الذّات وكسر أشكال التّسلّط العالميّة التي تصدّرتها فرنسا بتاريخها الكولونيالي الذي لا ينبغي أن يلزمها إلا هي ، ولا يمتد بالتالي ليظلّل معه كل الفرنسيين الشّرفاء الذين تصدّوا لسياسة الحكومة الفرنسيّة في سعيها لاحتواء الآخر واختزاله إلى أشكال تابعة ممسوخة في عالم كان شعاره الأول" الحوار والتّعايش الحضاري بين الثّقافات الإنسانية".

6. خاتمة:

ما يمكن أن نختم به في الأخير هذه الأوراق البحثية ، هو ضرورة مراجعة وإعادة النظر في تركيبة المنظومة الثّقافية للمجتمع الجزائري بهدف هزّ أسوار اليقينيّات المرتبطة بالفكر المتحجّر والنّظرة الإقصائية للآخر، وكذا تحطيم تلك الصّور النّمطية المتولّدة عن قانون العرف أو الشّائع التي لا تقبل الإزاحة أو الحوار من خلال الالتفات إلى الأصوات

العاقلة التي تطبع الثقافات جميعها ، ورفع السّتار من ثمّ عن منجزاتها أو فاعليّتها في سبيل مدجسور الحوار والتواصل بين العوالم الثقافية .

كلّ هذا في سبيل تحقيق رؤيا متجانسة حول الذّات في علاقتها مع الآخر ؛ رؤيا موضوعية عقلانية مترفّعة عن فلسفة الرّفض والإقصاء المصاحبة للصوّر الاستهلاكية المعهودة، والتي تنهد في أساسها إلى رسم المعالم الأولى للمصالحة مع الذّات قبل الالتفات إلى الآخر في لغته ودينه وثقافته، وهو المسعى الذي رمى إليه " بن زخروفة " في روايته هذه من خلال تسليطه الضّوء على جانب من تاريخ هذا الآخر في خيريته أو رفضه لأشكال وممارسات الظّلم والهيمنة على الآخر تحت مسمّيات وأهداف طوباوية في طابعها العام ، ولا تخرج فوق ذلك عن تمثيلات الشّمولية والفكر التّسلّطي الكولونيالي التي تبنتّها الحكومات الميتروبوليتية.

إنها المفاهيم التي رافع **"توماس"** من أجلها طيلة فترة مكوثه الإجبارية في الجزائر، رافضا فكرة احتلال حكومة بلده لسيادة وطن آخر، معرّضا نفسه لشتى أصناف التعذيب والقمع والتّنكيل الذي تمارسه القوى الاستعمارية على كلّ من يقف أمام مخططاتها الكولونيالية، ومنتصرا في الأخير للحرية وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها .

7. الهوامش:

1تم قرار التجنيد أواخر عام 1844، يُنظر، محمد بن زخروفة، سيغون ستارغو، الجزائر تقرأ، الجزائر، الطبعة الأولى، 2018 ، ص 11.

2 الرواية ، ص 25 ،26

3 الرواية ، ص 15.

4 الرواية ، ص 88.

5 هذا المصطلح جاء به غوستاف لوبون في حديثه عن عصر الجماهير، إذ يعد أول من صاغ المفهوم في مقدمة كتابه " سيكولوجية الجماهير" مبديا توجسا كبير منهم على اعتبار أن جميع الحضارات " كانت بنيت ووجهت حتى الآن من قبل أرستقراطية مثقفة قليلة العدد، ولم تبن قط من قبل الجماهير، فهذه الأخيرة لا تستخدم قوتها إلا في الهدم

والتدمير " سيغموند فرويد، علم نفس الجماهير، ترجمة : جورج طرابيشي، رابطة العقلانيين العرب، ودار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، 2006 ، ص : 7 .

6 عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، في مجلة حوارات، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2013، ص 281 .

7«مصطلح صاغته " جياتري سبيفاك لوصف الطريقة التي يتم بها إدراج الفضاء المستعمر في إلى العالم ، أي جعله يوجد بوصفه جزءا من العالم الذي شكلته المركزية الأوروبية بصورة جوهرية » بيل أشكروفت، وجاريث جريفيث، وهيلين تيفين، ترجمة :أحمد الروبي، وأيمن حلمي، وعاطف عثمان، دراسات مابعد الكولونيالية ؛ المفاهيم الرئيسية، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى،2010 ، ص:350 .

8 الرواية 43 .

9 مفكّر إيطالي ولد سنة 1891 بمنطقة سردينيا، تولّى سنة 1918 إدارة تحرير العدد الأول والأخير من نشرة الشبيبة الاشتراكية، بدأ نشاطه السياسي بعد الإضراب العمالي في إيطاليا، وفي سنة 1923 ألقي القبض على زملائه في الحزب من طرف الحزب الفاشي بينما كان غرامشي في مدينة موسكو، ليعتقل هو الأخير بعد ثلاث سنوات من هذا التّاريخ إثر نشاطاته السياسية، وأمضى في السجن إحدى عشر عاما، توفي بعد أيام فقط في إطلاق سراحه نتيجة معاناته مع المرض، يُنظر، أونطونيو غرامشي، تر سعيد بوكرامي، رسائل السجن؛ رسائل أونطونيو غرامشي إلى أمّه، طوى للثّقافة والنّشر والإعلام، لندن، الطبعة الأولى، 2014، ص5.6.7.

10 عبد الوهاب المسيري، مرجع سابق ، ص 286.

11 الرواية ، ص 96 ، 97.

12 - إنجيل متى ، الأصحاح 5 ، ص 44.

13 - إنجيل لوقا ، الأصحاح 9 ، ص 56.

14 - عبد الله إبراهيم ، المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2004 ، ص14.

15 الرواية، ص 07.

16 ينظر، عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص 292.

17 - جنرال فرنسي، قاد الحملة الفرنسية على الجزائر.

18 الرواية ، ص 94.

19 - عبد الله إبراهيم ، مرجع سابق ، ص 30.

20 - الرواية ، ص 103.

21 - الرواية ،ص 102.

22 - الرواية، ص 38.

23 الرواية ، ص 37.

24 - جون ستروك، ترجمة: جابر عصفور ، البنوية وما بعد البنوية، من ليفي شتراوس إلى دريدا، عالم المعرفة، د ط، الكويت، 1996 ، ص 123 .

25- ولد ميشيل فوكو سنة 1926، وانتقل سنة 1970 بعد أن درس الفلسفة في جامعة كليرمونت فراند إلى باريس حيث اشتغل أستاذا لتاريخ النظم الفكرية في الكوليج دي فرانس، من كتبه : "راقب وعاقب"، حفريات المعرفة "، " عصر الجنون، ينظر؛ جون ستروك، مرجع سابق، ص 135 .

26 المرجع نفسه، ص 124.

27 الرواية، ص 107.

28 الرواية، ص109- 110.

29 الرواية، ص 110.

30 الرواية، ص 114.